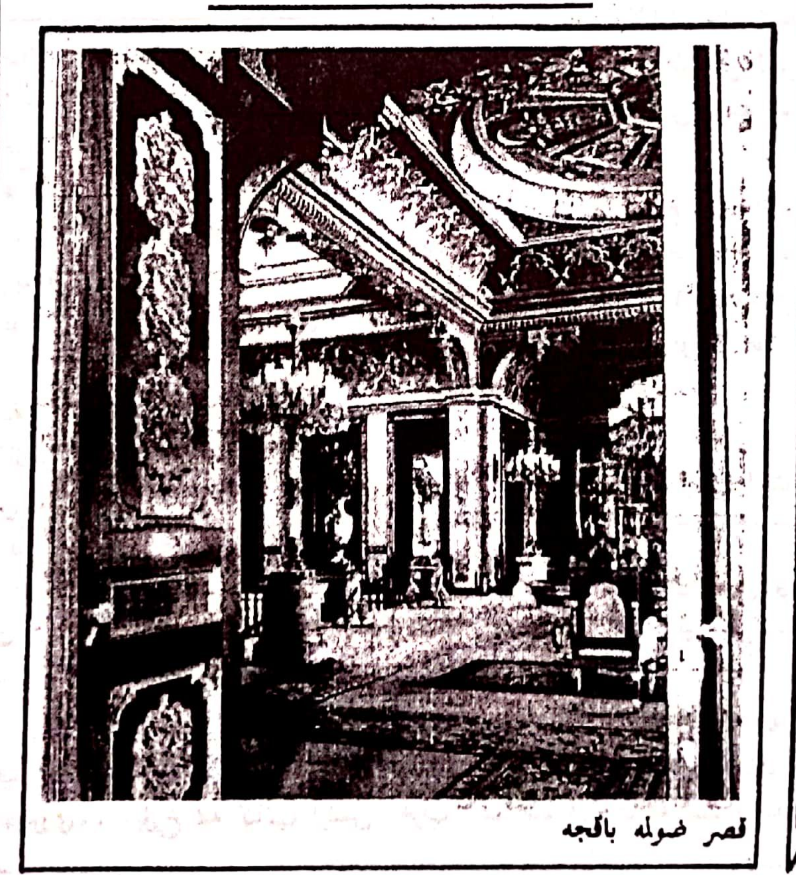
الأميرة ناظمة:

هكذا قتلوا ابي السلطان عبد العزيز

بقلم : عادل الصلح*



قصر ضولمه باقجه

● في ٣ اذار (مارس) سنة ١٩٢٤ الغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية واقصى العائلة المالكة عن تركيا فخرجت هذه العائلة من اسطنبول وتفرقت في مختلف الانحاء وجاء قسم كبير منها إلى لبنان. فسكن البعض في بيروت والبعض الآخر في جونية. وكان من بين هؤلاء الوافدين المرشال خالد درويش باشا وزوجته وقد نزلا في قرية صربا وسكنا البيت الذي أصبح فيما بعد القصر الجمهوري. والداماد خالد باشا عضو في مجلس الأعيان العثماني وقرين الاميرة ناظمة سلطان ابنة السلطان عبد العزيز وشقيقة عبد المجيد آخر خلفاء بني عثمان. وقد قدر لي أن أصاهر عائلة درويش باشا وأن يتسنى لي بذلك التعرف إلى الأميرة ناظمة سلطان وهي سيدة فاضلة ذكية ذات ثقافة عالية .وخلق سام ولطف جم. وقد جرى لي مرة حديث معها عن التاريخ العثماني وعلى الأخص الحقبة التي تولى فيها والدها عبد العزيز عرش السلطنة وحكاية وفاته. ولعل هذا الحديث هو أوضح رواية شخصية وعيانية من مشاهد للحادث البارز في حياة السلطنة. ولكن قبل الانتقال إلى شهادة الاميرة لا بد من الاطلاع على الرواية الرسمية كما نشرتها الصحف في حينها.

الرواية الرسمية

قالت جريدة «الجوائب»[١] الصادرة في اسطنبول في عددها المؤرخ في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣هـ: «قد شاع انه من يوم خلع المرحوم السلطان عبد العزيز اعترضته أمراض دماغية فاضطرب في حركاته فكان يتخيل ان البواخر السلطانية الراسية في البوغاز تطلق النار على العدو فزاده ذلك قلقاً فلم يستطع الرقاد في ليلة الأحد. فلما أصبح ذهب إلى الحمام كعادته ثم إلى البستان ثم رجع إلى حجرته وجعل يأمر بفتح الشبابيك والأبواب ثم يخرج منها ويرجع ثم يذهب مرة ثانية إلى البستان فكان الدنيا ضاقت عليه برحبها. ثم حاول الخروج إلى شاطىء البحر فرآه الضابط الذي كان يحرس الباب فقال له متأدباً: لا إذن في الخروج يا سيدي، فأبى وشتمه ثم جاء ضابط آخر وأشار عليه بالدخول إلى مقره فدخل وزاد بلبالا واضطراباً، حتى ظهرت فيه علامات الاختلال فكان يتوهم أن العدو هاجم وأنه يجب على العساكر أن تهجم على العدو وعلى البواخر ان تطلق النار عليه. وصار يتحدث مع أحد أعوانه في كيفية محاربة العدو. ثم طلب من احدى الجواري مقصاً ليقص به أطراف لحيته على عادته فخرجت الجارية واخبرت والدته بذلك فأعطتها مقصاً ومرآة فأخذهما وجعل يقص أطراف لحيته ووالدته تنظر اليه من وراء الباب فرآها وأمرها بالانصراف. ثم جلس على متكأ ونادى أحد الأعوان مرة اخرى واعاد عليه ذكر محاربة العدو ثم اخذ المقص وقطع به عرقا في وسط ذراعه اليمنى فحاول العون ان يأخذ المقص منه فمانعه. فذهب إلى والدته صارخاً فجلس المرحوم على متكأ وقطع عرق يده اليسرى قطعا مبينا. وقيل إنه قبل أن فعل ذلك أقفل الباب فجاءت والدته والجواري وطفقن يصرخن ويعولن وكسرن زجاج الشبابيك فجاء الضباط وسبعة عشر من مشاهير الأطباء. ولكن قبل وصولهم كان رحمه الله قد قضى نحبه فمات على تلك الحالة وصراخ جواريه يسمع من مسافة بعيدة. وعلم من تقرير الأطباء أن طول الجرح كان خمس أصابع وعمقه ثلاثا. وقد طبعت شهادة الاطباء ليكون معلوماً عند الناس كيفية موته. وفي الساعة الخامسة من ذلك اليوم أرسلت جثته إلى سراية طوبقبو لتغسل قبل دفنها. وفي الساعة العاشرة مرت جنازته من ديوان يولي ودفن إلى جانب أبيه المرحوم مولانا السلطان محمود وصحب جنازته عدة من الوكلاء الكرام والمؤمرين الكرام الفخام والمشايخ والعلماء وجم غفير من الناس رحمه الله وعفا عنه إنه غفور رحيم.

كانت ولادة المرحوم السلطان عبد العزيز خان في ١٥ شعبان سنة ١٢٤٥ وجلوسه على سرير السلطنة السنية في ١٧ ذي الحجة ١٢٧٧ وخلعه في ٧ جمادى الأولى ١٢٩٣ ووفاته في صباح يوم الأحد الموافق ١١ جمادى الأولى من السنة المذكورة».

... ورواية ابنته

هذا ما نشرته «الجوائب» في صدد وفاة السلطان عبد العزيز وهي الرواية الرسمية التي سمح بنشرها.

(٥) عادل الصلح: رئيس بلدية بيروت سابقاً. مجاهد قديم، مسجل وقائع تاريخية شهدها بنفسه. له كتابان: «سطور من الرسالة»، ويروي فيه عن والده قصة حركة ١٨٧٧م، من أجل استقلال الشام وتولية عبد القادر الجزائري عليها، «وحزب الاستقلال الجمهوري»، ويؤرخ فيه كنائب لرئيس الحزب. مساهمته في المقاومة ضد الانتداب الفرنسي.

وما ان ذاع الخبر حتى سرت الاشاعة بأن الرواية كاذبة وان السلطان قتل قتلاً وبقي الأمر غامضاً وموضوع تضارب في الرأي وقضية غير محسومة من قضايا التاريخ العثماني.

ولذلك اهتممت بمعرفة ما عند الاميرة ناظمة عن موت والدها. واليك الآن شهادتها في وفاة السلطان عبد العزيز كما روتها لي. قالت الاميرة: «ان الذين يقولون بأن والدي مات منتحراً مضللون. وقد شاهدت مقتله بأم عيني. وهاك ما رأيت:

في ذات يوم بينما كان والدي جالساً في إحدى قاعات القصر، وأنا إلى جانبه يداعبني. وكنت يومئذ في العاشرة من عمري، دخل علينا ثمانية رجال يشبهون المصارعين وتبدو عليهم القوة البدنية والشراسة. فلما شاهدهم والدي ادرك سوء قصدهم. ووقف يحاول الإفلات منهم. فأخذوا يتقدمون منه ببطء وحذر. تحسبا لما يحتمل ان يصدر عنه من مقاومة. وقد كان رحمه الله ضخم الجثة قوي البنية ومن المصارعين الاشداء. وبعد عدة مداورات استطاع أن ينأى عنهم. وأن يصل إلى مكان سلم نقال يؤدي إلى الطابق العلوي من القصر. وفوجىء هناك بخلو المكان من السلم لأن المتآمرين كانوا قد انتزعوه تحسباً واحتياطاً. فوقف ينادي بأعلى صوته «بورادة يومرديوه ن واردي كيم الدي» (هنا كان يوجد سلّم من اخذه؟) وأخذ يردد هذا السؤال ويطوف في قاعات القصر مهتاجاً والمهاجمون في أثره. وقد أرعبني هذا المشهد. فاتخذت من ستائر أحد الأبواب مخبأ استرق منه النظر إلى ما كان يجري. ثم رأيت هؤلاء الرجل قد تمكنوا في النهاية من محاصرة والدي بعد مقاومة عنيفة في زاوية من الزوايا. والقائه ارضا على ظهره. وجلس اثنان منهم فوق ذراعه اليمنى، واثنان فوق اليسرى. واثنان فوق ساقه اليمنى. واثنان فوق اليسرى. وتولى احدهم قطع شرايين كلتا يديه بموس. وبقوا فوقه حتى نزف دمه. وفاضت على هذه الحال روحه. ثم لفوه بعد ذلك بقطعة من ستائر النوافذ وحملوه إلى المخفر القائم عند المدخل. وكان مدحت باشا موجوداً فيه. مما يدلك على أنهم كانوا يبيتون له السوء منذ البداية أنه يوم وقوع الخلع بعثوا بالمناديين ينادون في الاحياء بأن عبد العزيز مات والسلطان مراد تولى مكانه.

إنني لا أدعي أن والدي لم يخطىء في حكمه. وجل من لا يخطىء. ولكنني أؤكد لك انه كان صادقاً في خدمة بلده، وعمل كثيراً من أجل مجد الأمة فقوى الجيش وجعل البحرية العثمانية القوة الثانية في العالم. كان إنساناً



مدحت باشا.

كريم الخلق حليماً توابا. وكان كاتباً أديباً. كتاباته الرسمية قطع ادبية رائعة. وكان ملما إلماما حسنا بالأدبين العربي والفارسي ورساماً ماهراً وموسيقيا موهوباً. كان أحياناً يقضي فترات للراحة في مقصورته في قصر ضولمه باغجة المطلة على البوسفور. ويشوقه روعة ليالي الصيف المقمرة لسماع لحن جميل فيأخذ الناي الذي يحبه ويطلق منه الألحان الجميلة فيتجمع لها المتنزهون في قواربهم حتى يمتلىء بها البحر. وكنا نحن من قاعات القصر نشارك مواطنينا نشوتهم وسرورهم. وغصت الأميرة هنا بالبكاء وسكتت هنيهة ثم قالت: لقد ظلم والدي».

واقعة شركس حسن

نقلت إلى القارىء حديث الأميرة ناظمة سلطان كما روته لي وقد أخبرني الصديق السيد عزت خورشيد رئيس دائرة التشريفات في وزارة الخارجية اللبنانية ان الأميرة روت له هذه الحادثة كما ذكرتها أعلاه.

وقد كان لوفاة السلطان عبد العزيز على هذا الشكل الغامض ذيول كثيرة منها حادث مقتل بعض الوزراء وكان ذلك بعد وفاته بأربعة أيام. اذ بينما كان مجلس

الوكلاء (الوزراء) مجتمعاً في بيت رئيس مجلس شورى الدولة مدحت باشا اقتحم مكان الاجتماع ضابط شاب ينتمي إلى أسرة قفقاسية عريقة اسمه شركس حسن واخذ يطلق الرصاص بكثرة على الحاضرين، فقتل خمسة أشخاص منهم حسين عوني باشا نفسه وناظر الخارجية راشد باشا. وفي التحقيق قال الضابط القاتل: انني فعلت ذلك من أجل السلطان عبد العزيز والأمة.

ويروي هنا الكاتب المؤرخ الشهير وأحد كبار موظفي القصر الملكي محمود جلال الدين باشا، وقد كان حاضراً الاجتماع الذي قتل فيه الوزراء ونجا هو من الموت، هذه الحادثة فيقول: بعد وفاة السلطان عبد العزيز باثنتي عشر يوماً وفي مساء الخميس ٢٣ جمادى الأولى دعي مجلس النظار إلى الاجتماع في اسكدار في بيت رئيس مجلس شورى الدولة مدحت باشا لمعالجة قضية الثورة التي نشبت ضد الحكومة في جزيرة كريت. وكان الحاضرون هم وزير الدولة الشريف مدحت باشا والصدر الأعظم محمد رشدي باشا والسر عسكر حسين عوني باشا ومدير الطوبخانة المشير رضا باشا وناظر البحرية قيسري لي أحمد باشا وناظر الخارجية راشد باشا وعضو مجلس شورى الدولة الشريف حسين باشا، (الملك حسين بن علي ملك الحجاز فيما بعد)، وناظر المعارف المؤرخ جودت باشا، ومستشار الصدارة العظمى سعيد أفندي. وبعد ان تناول المجتمعون طعام العشاء في الطابق الثالث من البيت انتقلوا إلى احدى القاعات الكبرى. وفي اثناء الاجتماع دخل ضابط شاب يحمل بأحدى يديه مدية شركسية وفي الأخرى مسدساً وتقدم خطوات قليلة ثم توقف وصاح بالمجتمعين لا تتحركوا. وأطلق الرصاص على السر عسكر حسين عوني باشا وناظر الخارجية راشد باشا وراح يجهز عليهما طعنا بمديته ثم تابع إطلاق الرصاص على الصدر الأعظم محمد رشدي باشا وعلى ناظر البحرية قيسري لي أحمد باشا وأحمد آغا خادم مدحت باشا. وقد ظن المجتمعون ان ثمة مؤامرة انقلابية وراء هذا الاعتداء ولما فوجيء المجتمعون باطلاق الرصاص فر منهم من فر واختبأ من أختبأ. ثم أطفأ الضابط الأنوار وأنزل ستائر النوافذ وأخذ ينادي النظار كلا بمفرده ليخرجوا من مخابئهم. ولكن الجنود لم يمهلوه. ودخلوا القاعة وجاء وراءهم الأهالي وأحاطت مفارز من الجيش والشرطة بالمكان وقبضوا عليه بعد أن تمكن من قتل شكري بك مرافق الصدر الأعظم وأحد الجنود. وبلغ عدد القتلى في هذا العراك خمسة والجرحى اثنان. وكانت الساحة قد أصبحت كأنها ساحة حرب. ثم انتقل المجتمعون إلى سراي السلطان لاجراء التحقيق في أسباب هذه الحادثة.



مصطفى كمال بالملابس التركية التي ألغاها.

اعترافات في التحقيق

ولما سيق الضابط القاتل إلى التحقيق قال أمام المحقق العسكري:

إنني في السادسة والعشرين من عمري، أعزب، ولدت سنة ١٢٨١ (هـ). جئت من شركستان الى دار السعادة ودخلت طالباً في الكلية البحرية. ثم انتقلت منها إلى الكلية الحربية البرية. وبعد ما اكملت فيها دروسي تخرجت برتبة يوزباشي والحقت بالجيش الهمايوني السادس ثم قضيت ياورا في مجلس الشورى العسكري ومنه نقلت إلى الدائرة الخاصة كمرافق للشهزاده يوسف عز الدين أفندي.

إلى أن يقول: كنت أنوي قتل حسين عوني باشا أثناء مراسم دفن السلطان عبد العزيز في تربة السلطان ولكنني عدلت عن ذلك لأنني لم أر من المناسب تحقيق امنيتي في هذا المكان.

وخرجت اليوم من بيتي قاصداً السر عسكر حسين عوني باشا أحمل مسدساً وخنجراً شركسياً. في الساعة الثانية وصلت اليه وبادرت الاغاوات بالسؤال عما إذا كان الباشا موجوداً في البيت فقيل لي انه ذهب إلى بيت مدحت باشا وقد أرسل في طلب أوسمته. فسرت رأساً إلى

بيت مدحت باشا. وعند وصولي اليه مكثت قليلاً في غرفة الاغوات. ثم سألتهم اذا كان السر عسكر باشا موجوداً هناك فأجابوني بالايجاب. فقلت لهم إن طيار باشا أرسلني لمواجهته. وصعدت إلى الطابق العلوي. ودخلت إلى القاعة مكان اجتماع النظار أحمل بأحدى يدي مسدسي وفي الأخرى مديتي. وقلت لهم لا تتحركوا انهضوا جميعاً. وما ان لمحت عيناي حسين عوني باشا أمامي حتى أطلقت الرصاص عليه وقتلته. وأذكر أنني أصبت كذلك ناظر الخارجية رشدي باشا. ثم اقتربت من حسين عوني باشا وطعنته بمديتي عدة طعنات وكذلك فعلت برشدي باشا. وتأكدت من موت الأثنين. وبينما كنت افتح باب الغرفة التي لجأ اليه مدحت باشا والصدر الأعظم وقيسريلي أحمد باشا. ضربني أحد الاغوات بآلة حادة على رأسي فأطلقت عليه الرصاص فقتلته ثم جاء رجال الحرس وأطلقوا الرصاص علي بكثرة فقاتلتهم بالمثل ولا أعلم اذا كان أحد منهم أصيب. وفي النهاية سلمتهم سلاحي. فقد قتلت حسين عوني وناظر الخارجية واحد الاغوات ولم أقتل غيرهم. وبعد ذلك قبضوا علي وجاءوا بي إلى هنا. انني فعلت ذلك من أجل الأمة والسلطان عبد العزيز.

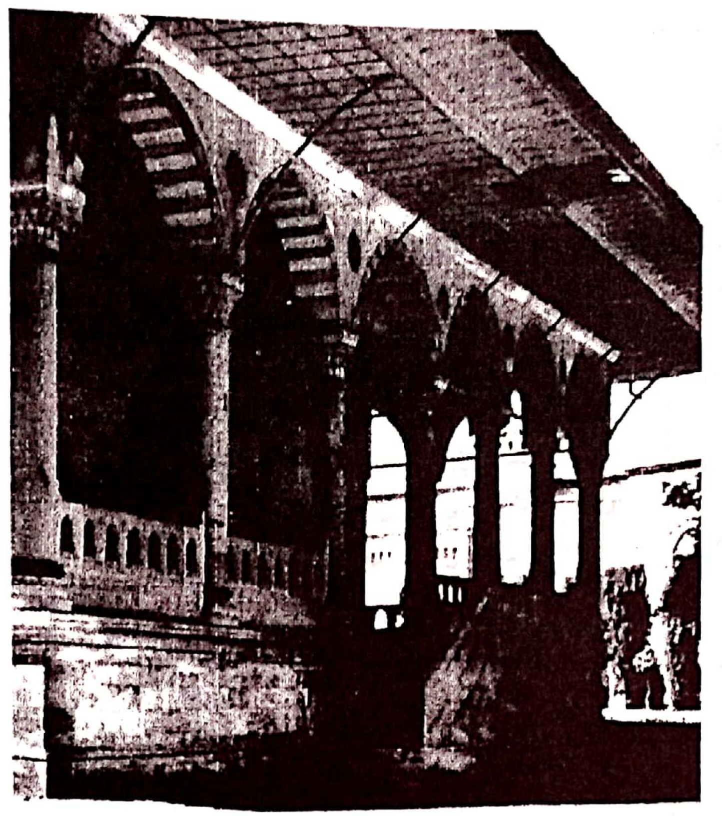
وبعد مرور أربعة أيام على وقوع الحادث أعدم شركس حسن شنقاً في ميدان بايزيد. ودفن في مقبرة «أدرنه قبوس».

وقد أقامت له والدة السلطان عبد العزيز ضريحاً فخماً نقشت على بلاطه ما يأتي: المرحوم المغفور له شركس حسن بك نجل ديش براكي زاده غازي اسماعيل بك. احد مشاهير الأمراء الغزاة تخرج من الكلية الحربية وحصل على رتبة القول اغاسي. قدم روحه وهو في شرخ الشباب فداء لولي نعمته الفاتحة سنة ١٢٩٣ (هـ).

وشهادات أخرى

وللمؤرخين القائلين بموت عبد العزيز قتلاً شواهد عديدة تثبت مدّعاهم أهمها: الشهادات التي أدلى بها أمام محكمة يلدز التي تشكلت لمحاكمة مدحت باشا بتهمة قتل السلطان عبد العزيز. وقد أثار هذه الدعوى البرنس يوسف عز الدين أفندي بن عبد العزيز بتحريض من السلطان عبد الحميد.

ومن هذه الشهادات شهادة البرنس يوسف عز الدين نفسه فقد قال أمام المحكمة انه في يوم وقوع الحادثة «السراي كلها كانت محاطة بالجند على غير عادة»، «وعندما بلغني نبأ الفاجعة حاولت الدخول إلى غرفة صاحب الجنان



سراي طوبقبو حيث غسل جثمان عبد العزيز.

فلم يأذنوا لي. وقناعتي أنه مات شهيداً».

وقال أحد موظفي القصر: رأيت الفاعلين يدخلون إلى الغرفة وهم: جزائرلي مصطفى، ومصطفى جاويش، ومحمد آغا، وفخري، ونجيب، وعلي، ورواقم. وبعد هنيهة سمعت صوت السلطان يصرخ: أمان الله. وكانت النوافذ مقفلة وفي الباب جنديان يحرسان مدخل الدار. وقد دامت هذه الحالة عشر أو خمس عشرة دقيقة. وبعد ذلك لفوا صاحب الجنان بستار احدى النوافذ. وقال شاهد آخر: «عندما جيء بالأطباء إلى مخفر قصر «فرعية» حيث كان يقيم السلطان وحاولوا معاينة أطرافه، تصدى لهم حسين عوني باشا وكان واقفاً عند الباب متكئا على سيفه، ومنعهم من ذلك قائلاً ليست هذه جثة أحمد آغا ومحمد آغا بل هي جثة بادشاه. انني لن اسمح لكم بازالة الستر عنها كلها لمعاينتها. وكان هذا الموقف التهديدي الذي اتخذه السر عسكر داعيا لحمل الأطباء على الاكتفاء بالمعاينة السطحية ووضع التقرير بحضوره.

وأدلى مدحت باشا في المحكمة بشهادة طويلة ختمها بهذه الخلاصة: «لقد اطلعت على شهادات الاشخاص الذين يعتقدون بانتحار السلطان عبد العزيز وعلى ادعاءات الأشخاص الذين يقولون بموته شهيداً. وقرأت أيضاً بدقة تامة الأوراق التي ملأت صندوقاً كبيراً من صناديق محكمة يلدز. ورغم كل ذلك لم اوفق إلى أعطاء أي حكم قاطع في أي من الادعاءين هو الصحيح.

وبشر القاتل بالقتل

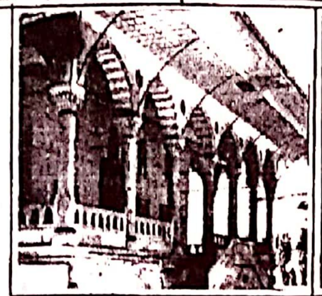
انا اذ استعرضنا بأمعان الحوادث الذي وقعت منذ اليوم الذي بدأت فيه تهيئة خلع المرحوم حتى ساعة رحيله أو ترحيله إلى دار البقاء أقول : اذا كان السلطان عبد العزيز مات قتلاً فان قاتله يكون حسين عوني باشا واذا كان موته حصل انتحاراً فان السبب في هذا الانتحار وبتعبير آخر القاتل المعنوي هو أيضاً حسين عوني باشا».

ولما بلغ الصدر الأعظم السابق يوسف كامل باشا مقتل حسين عوني باشا على يد حسين شركيس قال : «وبشر القاتل بالقتل».

أما حسين عوني فهو من مواليد قرية من لواء اسبارطة وكان والده حاجباً في إحدى الدوائر الرسمية. وكان ذكيا محباً للعلم دخل المدرسة الابتدائية في بلدته ثم سافر إلى اسطنبول والتحق بالكلية الحربية. وبعد ما اتم تحصيله فيها انتسب إلى السلك العسكري وتدرج في رتبه حتى بلغ أعلاها. ومنه انتقل إلى السلك الاداري وترقى فيه حتى تولى الصدارة العظمى. وكان عسكرياً جريئاً وادارياً ممتازاً. وكان من المناصب التي تولاها مشيرية الجيش الهمايوني الخاص. فكان بحكم هذا المنصب مجبراً على قضاء معظم أوقاته في القصر السلطاني وان يظل في معية سيده حيثما يكون. ويبدو ان حسين عوني كان يسلك مع بعض نساء القصر سلوكاً لا يتفق وتقاليد ذلك الزمن فيعمد أحياناً أثناء رواحهن وغدوهن في أروقة القصر ودروب الحدائق إلى مطارحتهن كلاماً يتنافى وقواعد الحشمة والرصانة. وانه كان يخص إحدى الجواري بدعابته ويفرط في إسماعها ما لم يرضها. فشكت أمره إلى والدة السلطان. وكان قد بلغها من أمره الشيء المثير. فنقلت بدورها الشكوى إلى السلطان فثار لذلك وأقاله على الفور من منصبه في الجيش الخاص، ونفاه إلى مدينة اسبرطة. وبعد ان قضى فيها عدة أشهر تقدم بعض أصدقائه من رجالات البلاد باسترحام إلى السلطان ليعفو عنه فأجابهم إلى طلبهم وأعاده إلى اسطنبول.

وقد اضطرت بعد ذلك كفاءات حسين عوني السلطان إلى تسليمه اخطر المهام في الدولة. ولكنه بقي







حاقداً عليه وكذلك كان شأن عوني تجاه السلطان. وظل هذا الحقد والنفور المتبادل يتأجج مع الزمن. واغتنم حسين عوني أخطاء عبد العزيز، فاتفق مع مدحت باشا على السعي لخلعه. وتمكن الاثنان من تنفيذ مشيئتهما. ويبدو ان ذلك لم يشف غليل حسين عوني. يضاف إلى هذا أنه كان يخشى ردة في الجيش والشعب تعيد عبد العزيز إلى عرشه وكان له فيهما أنصاره ومريدوه الأقوياء. فدبر على ما يقوله البعض مقتله. وقد حرص عوني باشا على ان يتولى منصب «السر عسكر» أي وزارة الحربية وقيادة الجيش ورئاسة الاركان قبيل موعد تنفيذ الخلع، حتى يتسنى له القيام به والقوات المسلحة كلها تابعة لسلطته. وقد هيأ للانقلاب بأن جاء بالجنود من خارج اسطنبول، وبفرق من سوريا وسائر البلاد العربية لأن هؤلاء بحكم وجودهم بعيداً عن العاصمة لا يعرفون ما يدور فيها من التآمر. واشاع عوني قبيل موعد الخلع بيومين أن الروس على أهبة احتلال العاصمة، ثم أمر كتيبة من طلبة الكلية الحربية الفرسان باحاطة قصر ضولمه باغجة من ناحية البر وقطع الأسطول من جهة البحر لتنفيذ الخلع. وخطب قائد المفارز العسكرية المتمركزة في ميدان القصر بجنوده «انه كان في نية السلطان عبد العزيز تسليم الدولة إلى الروس. وانه لذلك تم خلعه وتولية جلالة السلطان مراد الذي أنقذ البلاد من الأعداء مكانه، وأوصاهم بالمحافظة عليه» ●

(١) انشأ جريدة الجوائب في الاستانة أحمد فارس الشدياق أحد اركان النهضة الأدبية العربية الاخيرة سنة ١٨٦١. وقد انتشرت انتشاراً واسعاً واشتهر امرها في الشرق والغرب. وكان لها شأن كبير عند ادباء العرب لما كانت تحويه صفحاتها من ابحاث لغوية وادبية قيمة. وكانت تعد في السياسة وسائر شؤون الدولة على انها تعبر عن رأي السلطان والحكومة. وقد توقفت عن الصدور في الاستانة سنة ١٨٨٤.